

هجرة اليهود الى فلسطين وقصة الوطن البديل

تأملت باهتمام بالغ سلسلة المقالات المهمة التي تفضلتم بشرها بمناسبة مرور مئة عام على عقد المؤتمر الصهيوني الأول، ووضع الحجر الأساس للمنظمة الصهيونية التي أنتت الى ولادة دولة اسرائيل قبل نصف قرن تقريباً، ولا سيما الوثيقة التاريخية القيمة التي حررها عضو مجلس البعثات العثماني، الاستاذ روجي ياسين الخالدي رحمه الله، لما احتوت عليه هذه الوثيقة من معلومات ثمينة وبقية عكست ثقافة مؤلفها وسعة اطلاعه وإلمامه بأحوال العالم الكبير، خارج حدود عالمنا العربي ومنطقة نفوذ الدولة العثمانية، بأحاسيس تاريخي وقدره على قراءة الأحداث وترجمتها ترجمة موضوعية واستشعار للخطر تمني ان نراه عند ساستنا ومثقفينا في وقتنا هذا.

فقد بينت هذه الوثيقة (٣٠ آب/ اغسطس - ٥ ايلول/ سبتمبر، صفحة قضايا) المسارات المختلفة التي اتبعها اليهود في نهاية القرن الفائت لاجاد وطن قومي لهم يمكن تلخيصها في ثلاثة مسارات:

الأول يدعو الى هجرة اليهود الى فلسطين واستعمارها تدريجاً، أو ايجاد وطن بديل في أي ارض كانت. والثاني ينفر بشدة من فكرة استعمار فلسطين ويعمل بداب على تهجير اليهود الى الأرجنتين. اما الثالث فيصير على ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين دون أي مكان آخر «لإعادة مجدهم في صهيون» واستعمارها والتكاثر فيها. وكان من أوائل الدعاة لهذا النهج الجمعيات الاستعمارية المعروفة باسم «الغورون على صهيون» التي بدأت نشاطها بعد عام من ظهور «الانتي سيميتزم» في روسيا عام ١٨٨١، والتي نجحت بسبب نشاطها وقوة نفوذها في استمالة الدكتور هرتزل نفسه بعد ان كان يميل الى المسار الأول، وهيمنت على كل المسارات وتطورت حتى نظمت المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧، وقادت الى ما قادت اليه.

كما أرح الاستاذ الخالدي رحمه الله، بوضوح للمساعي الصهيونية الحكيمة التي قادها الدكتور هرتزل عند زيارته للاستانة سنة ١٩٠١، للتأثير في رجال «المابين» والسلطان عبدالحميد الثاني نفسه، وانعراهم بالخدمات المالية والأموال الطائلة للسماح لليهود بحق الحكم الذاتي في فلسطين على غرار جزيرة ساموس. وقد رفض السلطان رفضاً قاطعاً هذا

الطلب وعرض لأراض مختلفة من المملكة العثمانية بدلاً من فلسطين. وأتمنى ان تسمحو لي بالانطلاق من هذه النقطة لكشف مساعي إحدى هذه المنظمات الصهيونية التي تنتمي الى الفريق الأول وهي «منظمة الأراضي اليهودية» لاستعمار منطقة برقة في شرق ليبيا واتخاذها - ولو مؤقتاً - وطناً قومياً لليهود. فقد ثبت الاستاذ مصطفى عبدالله بعيو في كتابه الوثائقي الذي نشره في آذار (مارس) ١٩٧٥ بعنوان «المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا» نقلاً عن ناحوم سلاوش، الاستاذ بجامعة السوربون، وعضو بعثة «جمعية الأراضي اليهودية» (Jewish Territorial Organization) الى ليبيا، ان الأراضي التي عرضها السلطان عبدالحميد لم تكن إلا منطقة سرت في وسط ليبيا. ومعلوم ان منطقة جنوب سرت كانت في عهد الرومان ملجأ لكثير من اليهود الذين فروا اليها من منطقة قورينا «شحات» في شرق ليبيا اثناء قمع الرومان لثورة اليهود اللاجئين ان يؤسسوا مستعمرة لهم بالقرب من تل اليهودية. وقد اشار ناحوم سلاوش الى ان عدد يهود بلدة سرت كان حوالي خمسين يهودياً سنة ١٩٠٩.

وقد علق بعيو على هذا العرض بأنه «بادرة خطيرة من الحكومة العثمانية للمساهمة في حل مشكلة اليهود العالمية، على حساب جزء مهم من ليبيا بحكم الواقع الجغرافي لاقليم سرت، وأهميته بالنسبة لبقية اجزاء ليبيا كحلقة وصل بينها، فضلاً عن أهمية المنطقة المقترحة من حيث الامكانات الرعوية وتربية الحيوانات».

ويضيف بعيو ان تلك كانت أول محاولة يذكرها لنا التاريخ الحديث فيما أعلم بخصوص محاولة الدولة العثمانية اسكان بعض اليهود في منطقة مهمة من مناطق ليبيا. اما العرض الآخر الذي تقدمت به الدولة العثمانية لتوطين بعض اليهود في ليبيا فكان ممثلاً في ما اقترحه رجب باشا بحكم منصبه كوال للملاد (١٩٠٤ - ١٩٠٩م)، على ناحوم سلاوش عند مقابلة الأخير له اثناء زيارته لليبيا في تموز (يوليو) ١٩٠٦، وطلبه السماح له بزيارة الجبل الغربي. لقد كانت مقابلة رجب باشا لهذا الرحالة ودية للغاية حتى انه نصحه بالبدء من الساحل، حتى لا يجذب اليه التفات الايطاليين الذين كان يصر على رفض السماح

لهم بمثل هذه الجولة. كان رجب باشا (كما يصفه ناحوم سلاوش) ودياً للغاية في موقفه من اليهود، وكان من انصار مشروع الاستعمار اليهودي. وقد دعا رجب باشا هذا الرحالة الى زيارة منطقة مسلاتة التي كان يعتبرها مكاناً مختاراً للاستعمار الأوروبي. وفي هذه الاشارة توجيه لانتباه الرحالة اليهودي الى هذه المنطقة ودراسة امكانية الاستفادة منها في توطين اليهود.

ونصح رجب باشا ضيفه اليهودي بارتداء الطربوش على الطريقة التركية، وان تكون رحلته في هيئة استاذ مهمم بالطريقة اليهودية حتى لا يلفت انتباه المواطنين كثيراً. وربما فسر حماس رجب باشا الشديد لفكرة توطين اليهود للاستعانة بهم ضد ضغوط ايطاليا على حكومة الولاية ومن خشيته من استجابة الباب العالي للمطالب الايطالية في ليبيا. وقد لاحظ بعيو وجود عامل مهم ساهم في تسهيل مهمة ناحوم سلاوش عند رجب باشا وهو وجود يعقوب كريجر في منصب الترجمان العام للولاية. وكان يعقوب افندي يهودياً قد قدم الى طرابلس من سالونيك، واستطاع بمهارته الخاصة ان يستحوذ على رضى الباشا ويفوز بثقته، مما مكّنه من تقييم الكثير من الخدمات لبني دينه. وقد كتب يعقوب افندي الى ناحوم سلاوش يخبره بان الاقتراحات التي تقدم بها زعيم الصهيونية الدكتور هرتزل الى السلطان عبدالحميد بخصوص السماح لليهود باشاء وطن قومي لهم في فلسطين قد رفضها السلطان، وان اليهود والأتراك يمكنهم ان يتبادلوا المنفعة في ولاية طرابلس الغرب.

وقد نقل رجب باشا من ليبيا على اثر الانقلاب العثماني الذي أطاح بالسلطان عبدالحميد الثاني، واختاره رجال الاتحاد والترقي الذين قاموا بالانقلاب وزيراً للحربية، ولكنه مات يوم تعيينه فجأة. وقد صف ناحوم سلاوش وقائه في الصفحة ٩٥ من كتابه «رحلات في شمال افريقيا» بأنه «خسارة كبيرة لليهود».

ويبدو ان زيارة ناحوم سلاوش هذه الى ليبيا كانت بناء على توصية من شخصية يهودية نافذة اخرى، هو القنصل العام البريطاني في تونس السير هاري جوهانستن، وهو أيضاً رحالة مشهور بمؤلفاته الكثيرة عن افريقيا وأوضاعها الجغرافية السياسية. وقد

أصبح في ما بعد رئيساً للجمعية الجغرافية الملكية في لندن - الذي زار ليبيا سنة ١٨٩٨، في أواخر عهد نامق باشا، وألم بأوضاعها وأحوالها وغادرها وهو يحمل في ذهنه فكرة تحويلها الى وطن قومي لليهود. ولهذا نراه يتصل بالمسؤولين في «منظمة الأراضي اليهودية» بلندن التي يترأسها اليهودي الكبير اسرائيل زانجويل ويقترح عليهم فكرته ويحدد لهم منطقة الجبل الأخضر في برقة بالذات، كما يتبين من المقدمة التاريخية والسياسية التي كتبها اسرائيل زانجويل في الكتاب الذي تضمن تقارير البعثة التي ارسلتها «منظمة الأراضي اليهودية» لفحص المنطقة المقترحة لتوطين اليهود في برقة، وهو ما صار يعرف بالكتاب الأزرق.

وبناء على ما تقدم به السير هاري جوهانستن وما كتبه ناحوم سلاوش، قامت «منظمة الأراضي اليهودية» في الخامس من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ بإرسال بعثة علمية الى مدينة طرابلس ومنها الى منطقة الجبل الأخضر لدراسة امكانية تحقيق هذه الفكرة. وقد أوكلت رئاسة البعثة لـ د. ج. جريجوري استاذ الجيولوجيا بجامعة غلاسغو البريطانية. وتضمنت فريقاً من كبار المتخصصين في مجالات الزراعة والهندسة والموارد الطبيعية، وطيباً هو الدكتور م. كبير الذي قام بدراسة الأحوال الصحية في برقة وأعد التقرير الصحي في هذا الكتاب، بالإضافة الى ناحوم سلاوش، لسابق خبرته بالموضوع والتوضيح اهداف البعثة لرجب باشا وابعاد أي شك يثيره مجيء البعثة عند أهل البلاد.

وقد جاء في مقدمة تقرير البعثة ان «المنظمة» قبل ان تقوم بإرسال بعثتها الى برقة طلبت من اللجنة الجغرافية التابعة لها عمل الدراسات اللازمة للتحقق من امكانية الاستفادة من برقة كوطن قومي لليهود. وأمضت هذه اللجنة مدة سنتين في الدراسات الأولية في هذا الخصوص. وكان من بين اعضائها أوسكار ستراوس الذي اعترف منذ البداية بأن برقة لم تكن معروفة لديه. وقد علق اسرائيل زانجويل على ذلك بقوله ان برقة لم تكن بعيدة عن روسيا ورومانيا حيث كان اليهود هناك يعانون الكثير من الاضطهاد. وبالإضافة الى موقع برقة الجغرافي بالنسبة الى روسيا ورومانيا، فهي ليست بعيدة عن

فلسطين حيث تتجه قلوب اليهود. ويذهب اسرائيل زانجويل الى حد القول بان برقة تفضل فلسطين نفسها في تحقيق الموطن القومي لليهود، لأنها غير مقدسة عند المسلمين والمسيحيين، كما هي الحال بالنسبة لفلسطين التي تتنافس في تقديسها الأديان السماوية الثلاثة. وفي فلسطين تتنافس الفرق اليهودية الكثيرة، الشيء الذي لم تكن تعرفه برقة. وفي رأيه أيضاً ان اختيار برقة يفضل اختيار فلسطين من حيث قلة السكان الاصليين، الشيء الذي يسمح باستيعاب عدد أكبر مما تستوعبه فلسطين من اليهود اللاجئين، وليبيا بمساحتها الكبيرة كانت لا تضم إلا مليوناً من السكان أو نحو ذلك، مما يساعد على غلبة النفوذ اليهودي وضمان تقوقه بطريقة سهلة نسبياً باتباع سياسة تشجيع هجرة اليهود الى ليبيا بثبات ومناورة. وبالرغم من ان رجب باشا لم يقدم المشروع اليهودي رسمياً الى حكومته لا اسطنبول، الا ان المنظمة اليهودية اعتبرت ما ابداه من حماس للفكرة بادرة طيبة من حكومة تركيا، لأنها رأت انه يحكم رئاسته للقوات التركية في افريقيا قد تحصل تقريباً على كل سلطات نائب السلطان في البلاد.

وقد كان اسرائيل زانجويل، يرى ضرورة الاستفادة من حماس حكومة الولاية لفكرة المشروع اليهودي والبدء في المفاوضات المباشرة مع حكومة الباب العالي في اسطنبول من دون أي تأخير. وبينما كانت تجري الاستعدادات اللازمة لإرسال البعثة الى برقة، باهر بالاتصال بصديقه ارمينيوس فامبري، الاستاذ بجامعة بودابست، وكان ارمينيوس فامبري اليهودي في عقيته المدينة أبا روحياً لجماعة «تركيا الفتاة»، وصديقاً شخصياً للسلطان عبدالحميد في الوقت نفسه، ليطلعه على المشروع اليهودي في برقة ويعرف رأيه فيه. وجاء رد فامبري سريعاً بالموافقة مؤكداً على احتمال قبول السلطان للمشروع، وأظهر استعداداه للذهاب شخصياً الى اسطنبول اذا لزم الأمر لمعالجة المسألة بنفسه.

لم يكف ارمينيوس فامبري بالرد على رسالة اسرائيل زانجويل وابداء وجهة نظره في المشروع، بل قام بإرساله الى السلطان عبدالحميد الثاني عن طريق سكرتيره الأول تحسين باشا. ولما لم يجد السلطان ما يشتم منه عدم رضاه على المشروع طلب فامبري من صديقه اسرائيل زانجويل ان يكتب بنفسه الى السلطان مؤكداً له ان السلطان سيرد عليه بسرعة. وأعد ارمينيوس فامبري خطاب التقديم باللغة التركية الى تحسين باشا، وقبل ان يقوم زانجويل بإرسال الرسالة الى

السكرتير الأول للسلطان عرض مسودتها على ارمينيوس فامبري الذي اعتبرها وافية بالغرض حتى انه لم يغير فيها أي كلمة. وقد تضمنت الرسالة بيانات بمطالب «منظمة الأراضي اليهودية» في برقة على أساس الحكم الذاتي للمهاجرين اليهود.

وصل أعضاء البعثة الى مدينة طرابلس يوم الخميس ١٦ تموز (يوليو) ١٩٠٨ حيث قام القنصل العام البريطاني بتقديمهم الى الوالي رجب باشا، ثما عادوا بصحبة ناحوم سلاوش، لمقابلة الوالي مقابلة خاصة طويلة في اليوم التالي. ثم تركت البعثة مدينة طرابلس يوم الاثنين ٢٠ تموز متجهة الى بنغازي ومنها أبحرت الى مدينة درنة حيث قدمهم يعقوب كريجر الى القائد العسكري الذي سلموه، خطابات من رجب باشا وقام القائد العسكري بتقديم كل مساعدة لأعضاء البعثة وزودهم بحراس من الجنود الأتراك والجنرمة، كما زودهم بخطابات الى القادة العسكريين في «المرج» و«مرسى سوسة» وأمدهم بمعلومات عن موارد المياه والزراعة في المنطقة. وقد بقيت البعثة في مدينة «درنة» من ٢٤ - ٢٧ تموز قام فيها اعضاءها باختيار المورد المائي للمدينة، وعيون الماء الموجودة في وادي «درنة» وزياره بساتينها والحقول المجاورة لها، ثم تركوها في قافلة توجهت بهم الى عين شحات (قورينا) المعروفة بعين ابوللو المشهورة بمياهها العذبة. ومنها انقسم أعضاء البعثة الى فريقين بحسب تخصصاتهم لإجراء الاختبارات في مناطق مختلفة منها منحدرات «اسلطة» وبلدة «مسة» و«المرج» والسهول الواسعة في تلك المنطقة ثم انحدرت القافلة الى بلدة «طلميثة» على الساحل ومنها الى بنغازي ومن هناك عادت البعثة عن طريق طرابلس الى جزيرة مالطا حتى وصلت لندون في السادس والعشرين من شهر آب (اغسطس) ١٩٠٨.

وفي هذه الأثناء وبينما كان اسرائيل زانجويل يستعد لإرسال رسالته الى تحسين باشا جاءت الأخبار بوقوع الانقلاب العثماني في اسطنبول وخلع السلطان عبدالحميد الثاني. وكان من نتيجة هذا الانقلاب ان أصبح تحسين باشا لاحقاً سياسياً.

وهكذا تضافرت عوامل عدة لتساهم في فشل هذا المخطط أهمها هيمنة المنظمات الصهيونية المصرية على استعمار فلسطين من دون غيرها على بقية المنظمات، وكذلك الغزو الايطالي الذي اجتاح ليبيا في ١٩١١.

مانشستر (بريطانيا) - هشام بن غلبون، عضو «الاتحاد الدستوري الليبي»